تـربـيــة الله

بين الحين والآخر تأخذني ذاكرتي في رحلة على قارب الذكريات بين قصصٍ ومواقف، كانت هي مأواها، تأخذني إلى زمنٍ نسيتُه إلا بعضًا ممّا يميزه من الأحداث التي كان منها مانقلني من مرحلة لأخرى، تريني كيف كنت في صيامي الأول.. تغمرني بهجة طفلةٍ بدخولها قائمة المكلَّفين وستُعامل كالكبار لا كالأطفال الذين لا أهمية لا يفعلونه، استمعتُ إلى قِصص أبي في تلك الليلة كأنها المرة الأولى التي يحكي فيها عمّا عاشه ولم نعاصره، يتمنى هو عودة الأيام ونتمنى نحن لو كُنّا جزءًا من حكايًا تضمُّ عاداتٍ ومظاهرَ اندثرت بعد أن استبدل الناس أنظمة عاشوا بها، وكان من ضمنها اعتزال ذلك الرجل الذي يخرج للبيوت جميعها قبل أذان الفجر بوقتٍ كافٍ ليطوف عليهم بطبله الطارق جدران المدينة صوته، ليقوموا للسحور، رمضان ذاك جعل أهمية للأطباق التي جاء بها أرحامنا فشممتُ رائحة المحبة متسربة من فراغٍ صغيرعملتُهُ لأختلس النظرإلى داخل الطبق من خلال تغليفه، كان لورق العنب المحشي طعمًا ألذّ من اللّذة التي أحببتها عندما تناولته بعد صيام طويل، ولأول مرة قلت:"ذهب الظمأ وابتلّت العروق وثبت الأجرإن شاء الله" وأنا قاصدة معناها، أشعر بشربي للماء كأنني أسقي عروقي الجافة فأكون كنبتة ذبلت وعادت للحياة من جديد بعد جفاف شديد في الحلق مصاحبٌ لجوع أشعر به لأول مرّة بشكله القاسي هذا، تحوّل لألم حاد.. حادًا لدرجة أنّني أكاد أجزم أنّي لو ألقيت نظرة على تلك العضلة الصغيرة لرأيتها ورقةً كرمشها طفلًا لأنها كانت إحدى المرّات المخفقة من تجارب الأداء لرسمة جديدة. أدهشني عدد الساعات التي وجب أن يمتنع فيها جسدي الطفولي الضعيف عن استقبال أيّ مصدر للطاقة وألّا أتلذذ بطعم مأكولاتٍ رائحتها تزيدُ جوعيَ جوع، ماإن تمُرُّ بأنفي محطةً تترك معدتي بأصواتها الغريبة.. أشعرُ وكأنها كوب يُفرَّغ كل مابداخله، أبدأُ العدَّ من أذان الفجرِ وقبل أن أنتهي بوصولي للدقيقة التي يُرفع فيها أذان المغرب أقف في المنتصف وأسأل: لقد كانت ساعاتٍ معدودة وستنتهي بغذاءٍ يُعيدُ الحياة للأجساد المُنهكة ويسدُّ احتياجها كأن جوعًا لم يكن، لكنَّ صبري نفد وبهُت لوني في تلك الساعات القليلة، فكيف بمن ظلّت احتياجات أجسادهم فجواتٍ عجِزوا عن سدّها وعَيْلةِ عروقهم ملفّات مفتوحة لعدم امتلاكهم مايغلقونها به؟

إنني أجاهد نفسي أمام بريق أطباقٍ لايخفُت، وكلّما لَمَحَت عيني هاج الفراغ الذي يسكن معدتي وصار يزأر، فتكون أصابعي لي عدّادًا يحسُب ماتبقى من الوقت ليتحول وخز سكاكين الجوع إلى شيءٍ يشبه في إحساسه تمرير يد أمي على رأسي، لكن هُم؟ ألديهم مايجاهدون ألّا يأكلوه أم أنهم في جميع الأشهر يجاهدون؟ كيف يخدمهم العدّاد وهم لايعلمون أي رقم يجب أن يتوقفوا عنده؟ من يمسح على رؤوسهم ويعطيهم راحةً وأمانًا؟

ومنذ ذلك اليوم يحزنني رمي لقمة ولو صغيرة من أي نوع من الأطعمة بعد أن أمتلئ من أمثالها، منذُ أول مرةٍ قاسيتُ فيها حرمانًا في ماكان أساسًا في يومي، عرفتُ قيمة شق التمرة وأصبحتُ أستشعرُ قولي "الحمدلله" عند ارتوائي بعد ظمئٍ أيبس عروقي، أدركتُ حينها جواب أمي وأبي(لكي نشعر بالفقراء) عندما سألت: لماذا نصوم؟

صومي الأول كان أوّل ماأثبت لي أن التطبيق العملي يُعلّم مالايعلّمه الكلام ولو كان محاضرات لاتسعها المكتبات، أن تشعر بالجوع أبلغ من أن تُحدَّث عنه.. الشعوريشغل حيّزًا من الذاكرة، يترك أثرًا، ومن الممكن أن يخلق دوافع وعادات جديدة، يُطبع أثره على كل الأفعال بعده كختمٍ على أوراق رسمية، صومي الأول علّمني كيف أن عادات المرء وأفعاله يلتقيان في دوامةٍ لامنتهية فالأولى تنعكس على الأخرى والأخرى تدل على الأولى.. علّمني أن في الدنيا أشياء كثيرة نرى سطحها فنعتقد أننا رأيناها كاملة بينما مالم نره أكبر.. في الدنيا أشياء كثيرة أعمق مما أتصور

صومي الأول كان بداية الطريق في رحلة اليقين أن حكمة الله تتجلّى في كل صغيرة وكبيرة، يفرض الله علينا الصوم لنشعر بمثل مايشعر الفقراء فتدفعنا الرحمة التي جُبِلنا عليها لمساعدتهم وفي ذلك ارتقاء بالذات الإنسانية نحو كمالها.